

التحرير والتنوير

هذا الكلام استئناف ابتدائي رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات في قوله (ألم يأتكم) لأن الموجه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيون بقوله (وويل للكافرين من عذاب شديد) وهم معظم المعني من الناس في قوله (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) فإنهم بعد أن أجمل لهم الكلام في قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) الآية ثم فصل بأن ضرب المثل للإرسال إليهم لغرض الإخراج من الظلمات إلى النور بإرسال موسى " عليه السلام " لإخراج قومه وقضي حق ذلك عقبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلم فكان بمنزلة الحوصلة والتذييل مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقلياتهم في حجهم الباطلة ورد الرسل عليهم ما رد به القرآن على المشركين في مواضع ثم ختم بالوعيد .

والاستفهام إنكاري لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ؛ فأما قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضا بها قال تعالى (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم) وقال (وإنكم لتمرون عليهم مصحين وبالليل أفلا تعقلون) . (والذين من بعدهم) يشمل أهل مدين وأصحاب الرس وقوم تبع وغيرهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلا الله . وهذا كقوله تعالى (وعاد وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا) .

وجملة (لا يعلمهم إلا الله) معترضة بين (والذين من بعدهم) وبين جملة (جاءتهم رسلهم بالبينات) الواقعة حالا من (الذين من بعدهم) وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم الناس بهم .

ومعنى (جاءتهم رسلهم) جاء كل أمة رسولها .
وضمائر (ردوا) و (أيديهم) و (أفواهم) عائد جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه .

وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن .
ومعنى (فردوا أيديهم في أفواهم) يحتمل عدة وجوه أنها في الكشف إلى سبعة وفي بعضها بعد وأولها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواهم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواهم . وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسول .

والرد : مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه كما أشار إليه الراغب أي وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة رد .
وحرف (في) للطرفية المجازية المراد بها التمكين فهي بمعنى (على) كقوله (أولئك في ضلال مبين) . فمعنى (ردوا أيديهم في أفواههم) جعلوا أيديهم على أفواههم .
وعطفه بفاء التعقيب مشير إلى أنهم بادروا برد أيديهم في أفواههم بغير تلقيهم دعوة رسلهم فيقتضي أن يكون رد الأيدي في الأفواه تمثيلا لحال المتعجب المستهزئ بالكلام تمثيل للحالة المعتادة وليس المراد حقيقته لأن وقوعه خبرا عن الأمم مع اختلاف عوائدهم وإشاراتهم واختلاف الأفراد في حركاتهم عند التعجب قرينة على أنه ما أريد به إلا بيان عربي .
ونظير هذا قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض) فميراث الأرض كناية عن حسن العاقبة جريا على بيان العرب عند تنافس قبائلهم أن حسن العاقبة يكون لمن أخذ أرض عدوه .

إنا (قوله في الماضي وفعل (إن) عليه دلت بما الرسل به جاءت بما كفرهم وأكدوا A E كفرنا) . وسموا ما كفروا به مرسلا به تهكما بالرسول كقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) فمعنى ذلك : أنهم كفروا بأن ما جاءوا به مرسل به من الله أي كفروا بأن الله أرسلهم . فهذا مما أيقنوا بتكذيبهم فيه .
وأما قولهم (وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه) فذلك شك في صحة ما يدعونهم إليه وسداده فهو عندهم معرض للنظر وتمييز صحيحه من سقيم فمورد الشك ما يدعونهم إليه ومورد التكذيب نسبة دعوتهم إلى الله . فمرادهم : أنهم وإن كانوا كاذبين في دعوى الرسالة فقد يكون في بعض ما يدعون إليه ما هو صدق وحق فإن الكاذب قد يقول حقا .
وجعلوا الشك قويا فلذلك عبر عنه بأنهم مطروفون فيه أي هو محيط بهم ومتمكن كمال التمكن .

و (مريب) تأكيد لمعنى (في شك) والمريب : الموقع في الريب وهو مرادف الشك فوصف الشك بالمريب من تأكيد ماهيته كقولهم : ليل أليل وشعر شاعر ؟